Akhawia.net

كويت الخوري

ستلمس أصابعي الشمس

قصة رمزية

Akhawia.net

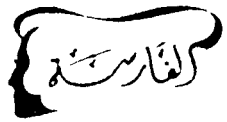

قصاع ــ غساني
٦٦ شارع سليم قنواتي
هاتف: ٤٤٤٦٥٣٧
فاكس: ٢٢٤٧٠٣٩
ص.ب: ٩٩٩
دمشق

جميــع الحقــوق محفوظــة للمؤلفــة

قرائــي الأعــزاء

هذه القصة الرمزية التي كتبتها سنة ١٩٦٢ ونشـرتها في السـنة ذاتها في بيـروت مسلسلة في مجلة «الحسناء» عندما كان رئيس تحريرها الكاتب الكبير والصحفي اللامع الصديق نبيل خوري.

... ثم نسيتها في أحد الدروج نائمة بين أوراقي...

هذه القصة وقعت بين يديّ اليوم

وعندما أعدت قراءتها... وجدتني متأثرة للغاية ومتلهفة لنشرها في كتاب.

ذلك لأنها أعادتني عمراً إلى الوراء... وذكرتني بالطريق الصعبة الوعرة التي قطعت..

والأهم

ذكرتني كم كان طموحي جامحاً

وكم كان إيماني بالفن عميقاً.. أصيلاً...

Akhawia.net

في ذلك الزمن قال لي شاعرنا الكبير عمر أبو ريشة بعد أن قرأ بضع حلقات من القصة:

ـ يجب أن تعدّلي العنوان

عليك أن تحذفي «ستلمس» وتكتفي بالكلمتين الباقيتين...

قلت له يومها في حبّ:

ـ « أصابعي والشمس» عنوان يليق بكتاباتك أنت...

أما أنا.. فأنا الآن مصرّة على أن تصل أصابعي إلى الشمس وتلمسها...

اليوم بعد أربعين سنة أذكر بحنين الشاعر الكبير عمر أبو ريشة وأجد نفسي أميل لعنوان «أصابعي والشمس» لكنني أرى أن علي أن أقدم لجيل الشباب وللصبايا بشكل خاص... هذه القصة بعنوانها الأصلي وكما كتبتها عندما كنت بعمرهنّ...

مع أحلى تمنياتي ...

ومع محبتي...

كوليت

دمشق ٢٠٠٢

كوليت الخوري

ستلمس أصابعي الشمس

قصة رمزية

Akhawia.net

الفصـــل الأول

Akhawia.net

- ١ -

أظلم وجودي،

وهطل الملل على بيتي وغلّل قلبي...

وتساقطت الثلوج السود على طموحي وآمالي...

فسرى الصقيع في عروقي ، وشعرت بخوف جارف يدفعني إلى الطريق.

فخرجت .. أبحث عن بصيص نور وعن سراب دفء .

ولكنني وقفت في الطريق ، ونظرت إلى الأمام ...

الطريق طويلة ، شاقة ، مظلمة ، وأنا وحدي!

يستحيل عليّ أن أقطع هذه المسافات كلها بمفردي .

لا أستطيع !

Akhawia.net

فالبرد يفتك بأعصابي... والخوف يسمّر قدميّ إلى الأرض .

ضعيفة أنا ... وخائفة !

ولكن ...!

وبرقت في مخيلتي آمال جديدة ،

وتراقصت أحلام الصبا أمام ناظريّ ...

لم الخوف ؟

أنا ابنة هذا المجتمع !

لي أصدقاء... لي أقرباء ... لي أهل ...

أنا ربيبة الماضي المكافح !

سأذهب إليهم ...

سأبحث عن الأشعة عندهم ...

نعم ... سأقطع هذه الطريق ،

وسيرافقني في سيري أناس أحبهم كثيراً ...

* * *

وابتسم في ذاكرتي بيت دافئ أليف ، أعرفه جيداً ...

بيت كبير أعرفه منذ زمن بعيد ... بعيد ... وأحب أصحابه كثيراً .

ألم أعرفهم قبل أن أعرف نفسي ؟

ولاح النور.

هناك ... في نهاية هذه الدرب الضيّقة يربض البيت الكبير ... مملكة الدفء .

سأركض ، وأرتمي في أحضانه ، وأضيع في أرجائه ...

أما عهدته دائماً واسعاً ، كريماً ، مريحاً ؟

ورحت أعدو

وأمل السعادة يرفرف في قلبي الطفل .

رحت أعدو دون تفكير ...

وكيف أفكر ؟ وهذا النور قد مزق ظلامي ؟

وفجأة ، اعترضتني امرأة غريبة :

– إلى أين أنت ذاهبة ... أيتها الطفلة الساذجة ؟

عجبت :

– ما شأنك أنت ؟ ماذا تريدين ؟

ردّدتْ سؤالها :

– إلى أين ؟ قفي !

ازداد عجبي وتأملت بدهشة هذه المرأة المسنة .

الشحوب يخفي معالم وجهها ، وثوبها الرمادي العادي يزيد في كآبة مظهرها .

لم تهتم لنظراتي الفاحصة ،

بل سألتني وهي تبتسم بسخرية :

– هل أنت ذاهبة إلى هذا البيت ... هناك ؟

– هذا ليس من شأنك ... ابتعدي !

– اسمعي نصيحتي ... لا أحد هناك يستطيع فهمك ...

لا تذهبي إلى هناك ...

– ابتعدي

هزت رأسها هازئة، وابتعدت مرغمة عن طريقي، وغمغمت :

– لقد نصحتك !

Akhawia.net

لم آبه لما قالت وواصلت ركضي نحو النور .

* * *

وقفت أمام الباب أنتظر جواب ندائي .

وإذا أشخاص ثلاثة ، متباعدو الأعمار يمدّون رؤوسهم ، وينظرون إليّ بلا مبالاة .

سألني أصغرهم :

– ماذا تريدين ؟

عجبت لهذا السؤال، لكنني ابتسمت بتسامح ، فالسائل طفل، والأطفال فضوليون بطبيعتهم ... وأجبت برقة :

– لا شيء ... أود أن أراكم ...

فسألت الكبرى :

– ومن أنتِ ؟

ذهلت :

– أنا ؟ ألا تعرفين من أنا ؟

أجابت دون اكتراث وهي تعود إلى الداخل :

Akhawia.net

- لا يمكن ... لا ... تذكروا ...

- أنت غريبة !

حشرجت :

- أنا غريبة ؟

- نعم... أنت من الجيل الصاعد الذي لانعرفه..

أنت غريبة ...!

ادخلي إذا شئت... افسح لها الطريق أيها الصغير...

ادخلي ولكن تذكري أنك غريبة ...

* * *

درت على نفسي !

وعدت من حيث أتيت ...

عدت إلى الطريق مشحوبة الوجه ، محطمة الجبين ...

ومشيت تائهة ، عاجزة عن التفكير ...

لكنّ ضحكة ساخرة دوت في أذني

التفتّ ،

فرأيت ذات الثوب الرمادي تقترب مني :

- ألم أقل لك ... لا تذهبي إلى هذا البيت ؟

كنت أنتظرك لأنني كنت أعلم أنك ستعودين...

وستمشين معي ...

- من أنت ؟ وماذا تريدين ؟

- لا شيء سوى مرافقتك !

- لكنني لا أودّ أن أراك... العجز يملأ عينيك...

ومظهرك الكئيب يسكب الضعف في نفسي...

ابتعدي عني ...

اصطكت ضحكتها البشعة ونطقت :

- أيتها الفتاة ... أترين هذه الطريق الطويلة ؟

إنها شاقة وأنت عابرة فيها أما أنا فمن سكانها... !

إنك تبحثين عن الشمس ، عن النور ،

ستسلكين دروباً كثيرة،

ستزورين بيوتاً عديدة ،

لكنك على الغالب ستعودين من حيث أتيـــت

Akhawia.net

فارغة اليدين محطمة الجبين... لتجديني أنا ...

سأكون غالباً في انتظارك ... لأقول لك إن جهدك ذهب هباء ، وإنك بنيت قصوراً على رمال ...

- ومن أنتِ ؟

- ألم تسمعي باسمي بعد ؟ طبعاً لا فأنت ما زلتِ صغيرة ...

أنا امرأة معروفة ... عند الجميع ...

ويسمونني " **الخيبة** " ... أيتها الصبية !

* * *

- ٢ -

ارتميت على الأرض خائبة ، والأسى يمزق نفسي ويفتت تفكيري ...

هذه الطريق طويلة ... رهيبة ...

والظلام يغمر الكون ويعمي أبصاري ، وهذه المرأة الجالسة إلى جانبي تقتل في نفسي كل رغبة في الاندفاع... فـــي البحث ...

متى تشرق الشمس ؟

وغرقت في شبه غيبوبة أيقظتني منها يد صغيرة تمسح خدي .

Akhawia.net

رفعت أجفاني ، فإذا طفل جميل الطلعة ، صافي النظرات ، ينغّم في أذني :

– لا تحزني يا ناعمة ، الطريق ليست مظلمة كما تظنينها ...

سألت متهللة :

– من أنت ؟

– أنا صديقك دائماً ... في هذه الطريق ...

تذكرت المرأة الجالسة إلى جانبي فالتفت إليها وعجبت إذ رأيتها تبتعد .

وفهم الطفل نظرتي فشرح :

–كان يجب أن تتعرفي إلى هذه المرأة ...

فالتعرف إليها يصقل النفس ...

لكن حاذري أن تقعي تحت سيطرتها ... إنها مهدمة مدمرة ...

تقتل الحماسة والاندفاع... لقد ابتعدت الآن لأنها رأتني ...

إنها تخشاني ... فأنا عدوها القوي .. أنا " **الأمل** " !...

شعرت بارتياح وتمتم الصغير :

– نعم يا ناعمة ... الطريق ليست مظلمة ...

سألت خائفة :

– متى تشرق الشمس ؟ أين الشمس ؟

– لا تحزني ... الشمس تولد دائماً ..

– لكنني وحيدة ...نسيني " **المجتمع** " لم يتعرف إليّ .. واعتبرني غريبة

لم يعلق بل تابع :

– انظري ... انظري ... كل هذه الدروب حولك ...

إنها تؤدي إلى **الأصدقاء** ...

– إن أصدقائي كثيرون ...

– إذن أنت لست وحيدة... اذهبي إلى الأصدقاء...

وابتعد الطفل الجميل ...

فنهضت ، واندفعت في درب من تلك الدروب ، وأنظاري متعلقة بالنور اللامع في نهايتها ، ونفسي تسبقني إلى الملجأ المجهول لتئن على بابه ، سائلة إياه قليلاً من الدفء .

Akhawia.net

ولكن ...

ما إن وصلت إلى النهاية حتى اختفى النور فجأة !

شهقت منـــزعجة وصرخت بأعلى صوتي :

– أين اختفى النور ... أين اختفى النور ؟

فردّ الصدى :

– سراب ... سراب

لا ! لا !

أنا ضللت الطريق ! أنا ضللت ...

كان يجب أن أسلك الدرب الثانية ...

وعدت راكضة ، واندفعت في الدرب الثانية ...

بلى ... النور في نهاية هذه الدرب ...

ولكن الصدى ظل يدوي في أذني :

– سراب ... سراب !

طار صوابي ...

لكن صوتاً خائراً وصل إلى سمعي ، وأعاد إليّ هدوئي :

– لا تتعبي نفسك يا فتاتي ... لقد سلكت هذه الدروب قبلك

و لم أجد أحداً ... أما أنا فأحبك ...

لكنني لا أستطيع أن أضئ لك النور ...

لا أستطيع أن أخلق لك شمساً ...

هذا الصوت الأبح الحبيب ... أنا أعرفه ... أنا أذكره ...

لكن صاحب هذا الصوت إنسان أطفأ الألم عينيه

وهو مثلي بحاجة إلى نور ...

وقفت حائرة ، بائسة .

هل أعود من حيث أتيت فارغة اليدين ،

لأجد ذات الثوب الرمادي تنتظرني وتضحك بسخرية ؟

لم يبقَ سوى هذه الدرب الأخيرة .

هل أندفع فيها ؟

وهل سيختفي النور حين أصل إليه ؟

دبت عليها خائفة ... واجمة ...

Akhawia.net

هل سيختفي النور ؟

ولكن النور كان يتلألأ كلما اقتربت منه ، وسطع حين أصبحت في مملكته .

لم أصدق . جالت نظراتي في المكان ... فإذا سيدة غريبة ، عابسة الوجه ، قاسية التعابير ، ترتدي ثوباً أصفر موشى بالسواد تستقبلني ، وشبه ابتسامة حزينة تموت على شفتيها ...

– أهلاً بك ...

– أين الأصدقاء ؟

أمسكت بذراعي وقادتني وهي تتمتم بثقة :

– أنا صديقتك الوحيدة يا فتاة !

شعرت بخوف مبهم وسألت :

– ولكن من أنت ؟ أنا لا أعرفك ...

– أنا ؟ أنا التي أذكرك دائماً بأنك وحيدة وأنك لن تجدي أحداً حولك ...

– لكنني لا أريد صداقتك... فأنت قاسية مخيفة ...

– صادقيني... أنا حقاً قاسية لكن آرائي موحية، والخصب في نفسي ! تعالي ... فأنا صديقتك الوحيدة ... ألا تعرفينني ؟

– لا أعرفك ... ولا أريد أن أتعرف إليك ...

قالت :

– لكن الزمن سيعرفك إليّ ... فأنا صديقتك الوحيدة ...

واسمي " **الوحدة** " يا فتاتي ...

* * *

Akhawia.net

– ٣ –

وقفت ،

والظهر منحنٍ ، وسواد الليل يقطر من عينيّ ليغمر روحي .

وقفت وحيدة ، ضائعة ، ضعيفة !

أنا ما زلت في أول الطريق ، ألوب على بصيص نور ، على شعاع ...

لكن الظلام يخيم ؟ وهذه السيدة إلى جانبي تفرش طريقي بالصقيع والخوف .

لماذا أمشي ؟

وتهالكت على صخرة ، وتهالكت علي الأسئلة :

لماذا لا يشعر غيري بصعوبة السير ؟

لماذا لا ينتقم القلق من خطوات الآخرين ؟

ما هي هذه الطريق ؟

من رماني فيها ؟

ولماذا فرض عليّ أن أمشيها ؟

لماذا ... لماذا ... لماذا ...؟

وفجأة

ارتفع صوت رقيق يردد سؤالي بتعجب :

– لماذا ... لماذا... ؟ لأنها تستحق أن يمشيها الإنسان !

أشرقت نظراتي وأنا أرى الطفل الجميل .

– عدت لأنكِ في حاجة إليّ... عدت لأقول لك إن الشمس تشرق دوماً ...

وإن أنواراً متعددة ترتعش في هذه الطريق ...

إنها " **الحياة** " يا ناعمة ...

– الظلام يعمي عينيّ ، والصقيع يجمد خطواتي...

الشمس لا تشرق يا صغيري...

Akhawia.net

- انظري إلى هناك ؟ أرأيت ؟

في نهاية هذه الدرب ، أرأيت النور ؟

هناك قصر كبير تعرفينه، لكنك سلوته للحظة..

اذهبي ، ستجدين هناك نوراً ودفئاً ...

وامتدت نظراتي إلى هناك ...

وابتسمت عيناي .

نعم ... هناك في القصر الكبير ... إنسان كبير ... كبير .

إنسان كان صدره عالمي الواسع فيما مضى !

هناك إنسان قويّ كنت أتسلح بصوته العريض لأسير مؤمنة إلى الأمام ...

هناك إنسان آمن بالكفاح الطويل ... وآمنت أنا به ...

هناك ...

كيف سلوت هناك ؟

وركضت فرحة إلى القصر الكبير .

وأمام الرتاج المغلق الذي طالما فتح من أجلي على مصراعيه ، وقفت أنتظر.

وانتظرت ، وانتظرت .

وأخيراً فتح قليلاً ، وظهر من شقته رجل نحيل قبيح يبتسم بشيطانية :

- ماذا تريدين ؟

زمجر التحدي في عينيّ !

أنا أعرف هذه الدار قبل أن يعرفها هذا الرجل ...

أنا أعرف هذه الدار منذ زمن بعيد ... بعيد ...

فمن هو هذا الوقح الذي يسألني عما أريد ؟

- من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟

كشر ساخراً ، فبرزت أنيابه القذرة ونطق :

- أنا أقيم هنا !

- وأين الإنسان الكبير ، صاحب الدار ؟

أين الإنسان الذي يعرفني ويحبني ؟

- إنه هنا ، لكنني أنوب عنه في كل شيء ، ماذا تريدين ؟

ولول حقدي .

وشعرت بأنني سأهجم على هذا الشخص

وأغرز أظافري في وجهه البشع وأصرخ :

Akhawia.net

- ابعد من هنا ... اخرج ... أريد أن أرى صاحب الدار...

ولكن صوتاً خائراً وصل إلى سمعي ولجم ثورتي :

- ابتعدي أنت يا فتاتي ... لا تعاندي هذا الشخص ،

إنه أقوى منك،

أقوى من الجميع .

أتيت قبلك إلى هنا لكنه سدّ في وجهي الطريق.

هذا الصوت الأبح الحبيب ، أنا أعرفه ، أنا أذكره .

لكن صاحب هذا الصوت إنسان أكل الأسى خطواته ،

وهو مثلي بحاجة إلى ماضٍ ... إلى تاريخ ... إلى " **أهل** "

هل أسمع كلامه ، وأعود ؟

لكن فضول الشباب أوقفني .

وعدت أسأل الشخص القبيح بتحدّ :

- من أنت ؟ أنا أكرهك ... أكره شكلك !

غمغم بلؤم :

- تكرهينني ؟ أجل. لكنك ستجدينني في انتظارك في نهاية الطريق .

- ولكن من أنت ؟

قفز قفزة جهنمية ، ثم قام برقصة هستيرية مخيفة بعثت الغثيان في نفسي .

وانحنى هازئاً ثم قال :

- يا ابنة الحياة، أنا سيد الحياة!...

أنا "**الموت**" !...

* * *

عدت إلى الخلف مذعورة ، والهلع يستبد بأوصالي .

ماذا أفعل ؟ إلى أين أذهب ؟

لم أعد أستطيع الوقوف .

دوار سيغرقني ... دوار سيـــبتلعني...

الأرض تدور ... الطريق تدور ... رأسي يدور ...!

إلى أين أذهب ؟

Akhawia.net

إلى أين بعد أن تهدم عالمي مع صدر الإنسان الكبير ؟

واقتربت ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد وأمسكت بذراعي :

– ألم أقل لك إنني صديقتك الوحيدة ؟

استسلمت ، وتبعتها دون أدنى مقاومة ، فقادتني إلى بيتي .

* * *

دخلت تائهة .

سأرتمي في أحشاء عشي الصغير. سأنام . لن أعود إلى الطريق.

لكن شخصاً سميناً استقبلني على عتبة الباب ، ضاحكاً ، مقهقهاً .

ذهلت !

وعاد التحدي يصيح في شفتيّ :

– من أنت ؟ وماذا تفعل في بيتي ؟

ضحك مستهزئاً :

– هذا بيتك يا فتاتي لكنني أنا أحكم في عالمك الصغير .

ثارت ثورتي :

– من أنت ؟

– من أنت ... من أنت ... من أنت ...

راح يردد سؤالي بصوت ساخر مدوّ ... وارتفع رنين ضحكاته ...

وارتجت جدران البيت ... واصطكت أسناني ...

وشعرت بأن رأسي سينفجر ... سينفجر ...

فصرخت مزمجرة :

– اخرج من هنا ...

قهقه :

– تعالي... استسلمي للواقع... أنا أحكم هنا...

– يستحيل ... يستحيل ... اخرج من هنا ...

ماذا تبغي مني؟

حدجني بشراهة ...

ولسعتني كلماته الرنانة :

– أريدك أنت... أريد شبابك ... أريد أن أنهش من عمرك

Akhawia.net

وأن أترك بصماتي على جسدك الجميـــل ...
أريدك أن تسخري لي أثمـــن أيامـــك...
اقتربي...

جن جنوني :

- إني أكرهك ... أكرهك ... أكرهك !

فسأل بميوعة :

- لماذا ؟ ألست جذاباً ؟ الحياة معي مريحة !

نبعت كراهيتي في الكلمات :

- إني أمقت شكلك ... بشرتك لا لون لها ...
وعيناك حفرتا صقيع، وسمنتك تخنق جوعـــي
... ابتعد ...
فنفسك دنيا قاحلـــة مملة ...
إني أكرهك ...

فهجم عليّ بوحشية فاتحاً ذراعيه :

- لا تبتعدي ... أريد شبابك ...

عدت إلى الوراء .

سأقتله ... سأقتله ...!

ولكن صوتاً خائراً وصل إلى سمعي وكبل نقمتي :

- لن تستطيعي قتله بمفردك... اهربي يا فتاتي ...
اهربي ... هذا رجل مجرم ...
لقد وهبته شبابي في الماضي
فدفنه في الجليد ...
هكذا هو " **الفراغ** " !

هذا الصوت الأبح الحبيب ... أنا أعرفه !
لكن صاحب هذا الصوت إنسان تجري الثلوج في عروقه
وهو مثلي بحاجة إلى دفء ...
إلى شعاع ... إلى شمس ...
نعم ...
لن أستطيع قتل هذا المفترس بمفردي .
جمعت مبعثرات قوتي ، ودفعته بكلتا يديّ ...
وهربت منهكة ، بائسة ، إلى الطريق .

* * *

Akhawia.net

- ٤ -

الشمس لا تشرق ... فكيف أجد الدفء ؟

سدت الدروب في وجهي ، وطريقي الوحيدة طويلة مظلمة .

لن أمشيها !

الكهل هناك يبتسم لي كالعادة ... فما لي الآن أردّ إليه ابتسامته ؟

سأذهب إليه ...

سأعيش في كهفه العتيق المتهدم ،

وسأنتظر معه الرجل البارز الأنياب .

هذا الرجل القبيح الذي ينتظرني في النهاية ...

أنا الآن سأنتظره !

واستولت الفكرة عليّ ، فركضت نحو الكهف .

- ماذا بك؟ قفي ... قفي يا ناعمة ...

لم أردّ على الصوت الرقيق ،

وواصلت ركضي فراح الطفل الجميل يركض ورائي

ويشدّ ردائي :

- قفي ... ماذا بك ...

- لم أعد أستطيع الاحتمال... لم أعد أستطيع...

خطواتي تغوص في التفاهة... الطريق تخيفني

لن أمشيها !

- وإلى أين أنت ذاهبة ؟

- إلى هناك ... إلى هذا الكهف العتيق ...

- أتعلمين من يقطن هذا الكهف ؟

- نعم ... رجل كهل شاهدته مراراً ...

إنه صديق ذات الثوب الرمادي .

Akhawia.net

لقد ابتسم لي مراراً لكنني عبست في وجهه.

أما الآن فأنا تعبة وأريد أن أذهب إليه ...

- ولماذا ؟

- لأهبه نفسي !

- لماذا ؟ هل جننت ؟ لماذا ؟

- لأنني سئمت ... لأنني تعبت ... لأنني وحيدة وضعيفة !

- لكن هذا الرجل كهل ... قبيح الشكل، مريض النفس ...

سيزيد ضعفك ضعفاً... وسيطفئ أشعة الشمس في عينيك ...

- الشمس لا تشـــرق ... والطريـــق طويلـــة مظلمة ...

وأنـــا وحدي ...

- ألست أنا إلى جانبك يا ناعمة ؟ كيف تتخلين عني ، وتذهبين إلى هذا الرجل ؟

إنه عدوي الأكبر ... هذا " **اليأس** " البشع !

وتعطفتني نظراته ، وتوسل :

- أرجوك ... لا تذهبي إليه ... أنا أكرهه ...

لا تذهبي إليه ما دمت أنا على قيد الحياة ...

هل تعدينني بذلك ؟

تأملت في الوجه الصغير الصبوح ... وتضاربت أفكاري .

كيف توافق الطفولة في أعماقي على أن أجرح هذا الصغير ؟

كيف يسمح لي شبابي بأن أذهب إلى هذا الكهل المريض ؟

وكيف ترضى عيناي أن أدفن فيهما الحياة ؟؟؟

مددت يدي وضممت الأنامل الصغيرة وتمتمت :

- أعدك ... لكنني ضائعة يا صغيري ،

لا أدري إلى أين أذهب ... أنا ضعيفة ...

ضحك الصغير ، فسالت ضحكته في أذني جدول ألحان ...:

- ابتسمي يا ناعمة ... واغرقي يديك في الطيب

فهناك رجل وسيم يعشق يديك ...

Akhawia.net

إنه ينظر إليك ويراقب تصرفاتك...

التفتّ.

هذا الرجل الأسمر الممشوق الواقف هناك ، أعرفه جيداً ...

وأحبه كثيراً ... لطالما داعبته وأنا طفلة ،

لطالما لجأت إليه لأشكو له همي ...

ودمدم الصغير :

- نعم أنت تحبينه ، وهو رجل قوي ، فلماذا لا تتحدثين إليه ؟

أنا أعلم أنه يحبك ... مدّي له يدك ...

فهو مغرم بيديك ... بأناملك ...

ترددت .

ولكن صوتاً ضعيفاً صادقاً وصل إلى سمعي ومحا ترددي :

- لا ترددي يا فتاتي ... مدي يدك لهذا الرجل ،

لن تندمي .

لو أحبني أنا لوهبته نفسي منذ زمن بعيد ...

لو عشق يديّ لسخرتهما الدهر لخدمته .

مدي له يدك !

هذا الصوت الأبح الحبيب ، أنا أعرفه .

لكن صاحب هذا الصوت إنسان عصف الضياع بمركبه ،

وهو مثلي بحاجة إلى مرفأ.

وعاد الصوت الرقيق يهمس في أذني :

- هيا ابتسمي له يا ناعمة ، ادعيه إلى بيتك ، أحبّيه ، اطلبي إليه أن يحكم في عالمك الصغير...

وأن يرافقك دائماً ...

إنه ينتظرك ...

سينير طريقك ، سيمسك بيدك ، وستصبحين قوية...

ابتسمي فهو وحده يعرف طريقك الصحيحة ...

وابتعد الطفل بهدوء ورقة كغيمة صيف ،

فتبعته نظراتي الشاكرة ...

ثم حملت الطرف إلى الرجل الأسمر

الذي اقترب ...واقترب مني ...

Akhawia.net

وزغردت عيناي لإطلالته الساحرة ،

وأزهرت على شفتي ابتسامة واثقة حازمة ،

وطارت يدي لتنهل القوة من يديه .

انحنى ...

ودسّ قبلة في راحتي ...

فشعرت بالنيران تسيل في عروقي ،

وتراقصت أناملي كعرائس من وهج ونور ...

تمتمت :

– أنا أحبك ...

فنطق :

– إذا اعتنيت بي ، فسأعطيك كل ما عندي

سأعطيك الكثير ،

وسأظل إلى جانبك حتى النهاية ...

سأنثر الأضواء في أجوائك ...

وسأطرز وجودك بالمعاني ...

سأجعل من أناملك ينابيع دفء ...

وسأنصب لك أهدافاً تنسيك مشقة المسير ...

وفتح ذراعيه

فارتميت بينهما ...

وشعرت وأنا في عالم صدره أنني أستطيع أن أجابه الدنيا .

فهمست :

– أنا لك ...

قاطعني :

– والدنيا لنا ...

وحملني ..

وطار بي إلى بيتـــي ....

* * *

تمايلت طرباً وأنا ألج بيتي مع صديقي الأسمر .

واستقبلتني ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد، صديقتي الوحيدة .

Akhawia.net

لكنني لم أشعر بقسوتها هذه المرة .

بل خيل إليّ أنها تبتسم ... خيل إليّ أن ملايين الوجوه تبتسم في محياها ،

وأن الذكريات القديمة كلها تبعث في نظراتها ...

قالت :

– وأخيراً... لقد وجدت ما كنت تبحثين عنه ..

وجدت حب حياتك ... نعم أخيراً نجوت من الضياع ...

وسكتت قليلاً ،

ثم تابعت بثقة :

– أنا الوحيدة التي تستطيع أن تعلّمك

كيف تعتنين بصديقك ...

ستجدين في نفسي ألوف الينابيع ... نعم إني قاسية ...

فأنا قاسية دائماً مع الضعفاء الذين يجهلون كيف

يستغلون مواهبي ...

صدقتها .

وآمنت برأيها

فرحت أسرق من عينيها الصور وأقدمها هدايا إلى صديقي ...

رحت أهل من نفسها الرحيق وأصبه في كأس أسمري ...

رحت ألملم اللآلئ من راحتيها وأصوغها عقوداً أطوق بها الجيد الحبيب.

وحين خرجت معها إلى الطريق ، وجدت جواداً ينتظرني .

– هذا الجواد لك ... هذا الجواد سيحول طريقك

إلى سلم يصعد بك نحو الذرى المتكبرة .

خفت :

– ولكن ... ربما سقطت ... ربما وقعت من على ظهره ...

عاتبتني نظراتها وقالت بحزم :

– هذا الجواد لك ويجب أن تكوني أهلاً لامتلاكه ...

Akhawia.net

اسمعي نصيحتي ... كي تعتلي هذا الجواد وكي ينهب بك الأرض نهباً ، يجب أن تعتني بصديقك الأسمر الممشوق ...

يجب أن تسخري لـــه لحظاتـــك وأن تشعـــلي في معبـــده أصابعك ...

إنه قـــوي ...

يعرف الطريـــق جيداً

وهـــو الذي سيقـــود جوادك ...

فكرت .

يجب أن أمتطي هذا الجواد ...

يجب أن تقصر الطريق ،

وأن تنهار الحواجز ...

لكنني ظللت خائفة ...

ربما لم أستطع الاعتناء بصديقي ؟

ربما تخلى عني الأسمر ؟ ورفض أن يقود جوادي ؟

ربما وقعت ؟ ربما سقطت ؟

ولكن صوتاً ضعيفاً وصل إلى سمعي . فزعزع خوفي وعاتب قوتي :

– أين ثقتك بنفسك يا فتاتي ... هيا امتطي هذا الجواد ...

لا تفعلي مثلي ... لا تخنقي الجواد بالهمود...

لا تقتلي الطموح بالرتابة ...

اعتلي هذا الجواد ...

طيري واهبي الأرض ...

طيري عوضاً عني ... يا فتاتي ...

هذا الصوت الأبح الحبيب ، أنا أذكره ... أنا أحبه ...

ولسوف أسحبه معي نحو الذرى المتكبرة ...

لا !

لن أسمح للذكريات السود بأن تحطم عزمي ..

Akhawia.net

وتقتل طموحي ...

يجب أن أطير ...

وعدت إلى بيتي راكضة ...

لأرتمي بين ذراعي صديقي الأسمر الممشوق... حبيبي "**الفن**"...

*   *   *

٢

الفصل الثاني

Akhawia.net

- ١ -

يداي مغرقتان في الطيب ...

وعيناي تضحكان للأضواء التي ينثرها صديقي في بيتي ...

الطريق تبدو قصيرة جداً كلما خرجت إليها ...

لكنني لا أريد أن أصل إلى نهايتها ...

فمنظر الرجل القبيح المكشر ...

يرهبني .

لا ... لا أريد أن أصل إلى النهاية !

لماذا تبدو الطريق الآن قصيرة ؟

ألأن الشموس التي أشرقت فجأة تغريني في الوصول إلى الأعالي؟

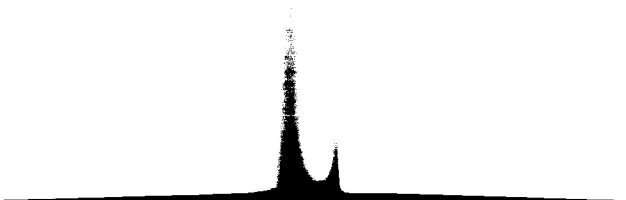

Akhawia.net

ألأن صديقي قويّ ووهبني من قوته آمالاً ؟

ألأن الجواد رسم لرحلاتي آفاقاً لا محدودة ؟

أم لأنني أريد أن يكون لديّ الوقت الكافي كي تترك خطواتي آثاراً ملونة

لا يمحوها العابرون !

وبينما أنا أفكر في كل هذه الأمور اقترب مني أسمري قائلاً :

- يا حبيبة... لقد اعتنيت بي كثيراً، وقد آن

أن ترفهي عن نفسك ...

منذ زمن وأنت تحبسين نفسك في البيت من أجلي ...

قصة حبنا أصبحت معروفة

وستأتي اليوم سيدة عظيمة

لتهنئنا ...

تعالي نستقبلها ...

واقتربت من النافذة ونظرت إلى الخارج فرأيت موكباً يقف أمام الباب وتنـــزل من العربة الضخمة اللامعة سيدة أنيقة .

فتحت لها الباب ، وإذا أنا أمام امرأة رائعة الجمال ، ترتدي ثياباً فاخرة ،

والمجوهرات النادرة الثمينة تغمر جسدها الفارع ...

وقفت أمام عظمتها كطفلة بريئة حائرة ...

ماذا أفعل بهذه السيدة ؟

لكنها لم تترك لي مجالاً للتفكير بل أمسكت بيدي

وقالت بصوت ضاحك رنان :

- تعالي ... سأعرفك إلى أناس كثيرين ...

سأسليك ... سأرفعك إلى قممي ...

سأجعلك فتاة مرموقة ...

حاولت أن أقول شيئاً ، لكنها شدت يدي وهي تقول :

- هيا بنا ...

التفتّ إلى أسمري استشيره لكنه هزّ كتفيه لا معارضاً :

- اذهبي معها ... ولكن إياك أن تنسي أن كل دمعة في نفسك تساوي كل ما تملك هذه السيدة من لآلئ ومن ثروة ...

Akhawia.net

نفسك أغنى من عالمها ...

واقتربت ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد ووشوشتني :

- لا تغرّك عظمة هذه السيدة ... إنها تافهة ...

هذه السيدة تهتم بالمظاهر وتحطم الأعماق ...

عجبت .

صديقتي الوحيدة لم تكذب عليّ مرة ، فهل هي الآن صادقة كالعادة ؟

أم أنها تغار من الصديقة الجديدة ؟

سألتها :

- ماذا تعرفين عنها ؟ ما اسمها ؟

قالت :

- أعرف أنها فارغة ... لا تهتم بالأعماق ...

ألا تعرفينها...؟ وكثيرون من أصدقائك يعاشرونها ؟

أعرفك إلى **"الشهرة"** التي تذهب بعقل الكثيرين من عشاقها...

- لكن هذه السيدة تبدو مرحة مسلية، والحياة معها ميسورة رغدة ...

غمغمت :

- لا بأس ... اذهبي معها وستكتشفين وأنت معها ...

أنني صديقتك الوحيدة ...

لم أردّ وخرجت مع السيدة الغنية .

خيل إليّ وأنا أمشي معها أننا نقف وسط هالة من ضوء تنـــزلق على نظرات المعجبين ...

وعجبت .

أنا لم أدر في البدء أن حبي لصديقي الأسمر سوف يدفع هذه السيدة العظيمة إلى زيارتي .

لكن زيارتها المفاجئة سرّتني كثيراً ...

وزادتني تعلقاً بأسمري !

تمتمت في براءة :

Akhawia.net

– أنا فرحة لأنني معكِ ...

ضحكت :

– تعالي ...

سنعود معاً إلى الدروب العديدة التي سلكتها في الماضي ...

صرخت خائفة :

– لا ! لا أريد !

حين ذهبت إلى البيت الكبير وجدت نفسي غريبة ...

وحين ركضت في الدروب المضاءة ، فهمت أنني وحيدة ...

وفي القصر الكبير ... عرفت طعم العدم ...

وشعرت بصغر شخصي ...

سخرت من كلامي :

– لا تكوني ساذجة ! أنا معك الآن ...

ألا تعلمين أن مظهري يبهر الناس ؟

ألا تدرين أن البشر يخضع لي ؟

ستعودين إلى المجتمع ... والأصدقاء ... والأهل..

تعالي ... أنت الآن قوية !

ومشيت معها .

وصلنا إلى البيت الكبير .

وقبل أن أنادي فتح الباب على مصراعيه ، وهلل السكان ، وهتف الصغير :

– أهلاً بك .

ابتسمت للطفولة وقبل أن أقول شيئاً رددت الكبرى :

– أهلاً بك .

سألت مستغربة :

– هل تعرفين من أنا ؟

فأجاب رب البيت :

Akhawia.net

– أنتِ ؟ أنت من الجيل الصاعد الذي نفخر به !

أنتِ ابنة هذا البيت ... أهلاً بك...

انطفأت الدمعة اللاهبة في حلقي ،

وترنحت الذكرى الأليمة في خاطري ،

فتمتمت بمرارة :

– لكنكم أنتم الآن ... غرباء !

وأمسكت بذراع صديقتي وعدت من حيث أتيت .

ضحكتْ :

– أرأيت ؟ إن مظهري يبهر الناس !

تعالي نذهب إلى الأصدقاء .

وفي الدروب العديدة التي سلكتها وحدي اندفعت من جديد .

ولكن النور في نهاية كل درب كان هذه المرة يسطع حين أصل إليه ، وينبع الأصدقاء ، وتنصبّ عليّ المودة :

– أهلاً بك... نحن دائماً إلى جانبك وفي صفك...

نحن أصدقاؤك ...

فتزوغ عيناي ..

وتهتف الذكرى المرّة في أعماقي .

– ســـــــــراب .... ســـــــــراب !

وأخيراً ،

ذهبت مع صديقتي العظيمة إلى القصر الكبير ...

هناك ، حيث كان يقيم الإنسان الكبير ... الكبير ...

هناك فقط ،

لم يفتح الباب على مصراعيه !

بل ظهر من شقته الرجل النحيل القبيح وقال بسخرية :

– أنا لا تهمني المظاهر... ولا أخضع للعظمة ...

حكمي يسري على الجميع وهذه السيدة التي معك لا تغريني ...

أيتها الفتاة ، كثيرون تعرفوا إلى هذه السيدة قبلك، وطويتهم أنا بين جناحيّ السوداوين...

Akhawia.net

لا تنسي أن الإنسان الكبير هو أيضاً تعرف إلى هذه السيدة ... و لم تفده حين جئت أنا ...

ابتعدي من هنا... ستجدينني في نهاية الطريق...

سرت القشعريرة في جسدي ... وشعرت بصغر شخصي ...

لكن صديقتي ضحكت :

- لماذا تحملين الأمور أكثر مما يجب ؟

لا تهتمي بما يقول هذا الشخص ...

اهتمي بالطريق فقط ...

لقد أضأتها لك ... فاسبحي في النور ...

تعالي ...

ووجدت نفسي معها دون أن أدري على قمة صخرة عالية ... شاهقة ..

قالت :

- انظري ... هذه الحقول المزهرة المترامية ...

هذه الأنهار المتدفقة ...

كل هذه الأراضي المنبسطة أنا أملكها ...

اهلي من ينابيعها ...

اقطفي من أزهارها ...

ارقصي في هذه المساحات اللامحدودة ...

ألا يغرك البقاء هنا ؟

فكرت .

لقد وصلت إلى قمة عالية . هل هذا ما أبغيه ؟

هل يسرني البقاء على قمة هذه الصخرة ؟

وهل قمة هذه الصخرة هي الذرى المتكبرة التي كنت أطمح في الوصول إليها ؟

وغرقت في الأسئلة .

ولكن صوتاً بعيداً وصل إلى سمعي وصاغ في أعماق أعماقي الجواب :

Akhawia.net

- لا تغرنك هذه الأضواء يا فتاتي ...

كلنا إلى زوال وهذه السيدة أيضاً تزول ، تزول بسرعة

وتهوين أنت من القمة . صديقك الأسمر وحده يبقى ...

عودي إليه ، عـــودي إليـــه ..

فهو وحده يستطيع أن يتحدى الرجل المكشر في النهاية .

هو وحده قادر أن يبقى بعده ...

استفيدي من ثروة الصديقة الجديدة ...

اسرقي من أراضيها لوحات زاهية

وقدميهـــا إلى صديقك الأسمر ...

هذا الصوت الأبح الحبيب ...

هذا الصوت الذي لم ينسني في أيام العذاب ؛ أنا أحبه ...

وصاحب هذا الصوت إنسان يعيش الدهر في أعماقه وهو مثلي لا يجـــد الدفء في المظاهر .

لملمت الأزاهير بسرعة وعدت إلى بيتي مع الصديقة الغنية وحين دخلت غرفتي وقفت أمامي ؛

وراحت تخلع ملابسها .

رأيت الخاتم الماسي الكبير يتدحرج على الطاولة... ثم ينفرط العقد الزمردي على السرير ... وتنـــزلق الثياب المذهبة عن الجسد الأبيض الفارع لتتهالك عند القدمين ...

وارتفعت نظراتي لتتأمل هذه المرأة الجميلة العارية ...

ولكن فجأة ...

اختفت المرأة !

أين اختفت ؟؟ كيف اختفت ؟؟ كيف تبخرت ؟؟ ...

ذهلت !!!.

وشعرت بالبرد يهف من الزوايا ويملأ الغرفة ويثقل على كاهلي.

وتثلجت أطرافي ودارت نظراتي تبحث في الغرفة عن أثر ...

وإذا الباب يفتح ...

Akhawia.net

وتدخل ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد .

نظرت إليها متسائلة فراعني عبوس وجهها .

قالت بلهجة قاسية :

- ألم أقل لك إن هذه السيدة الغنية لا تهتم إلا بالمظاهر ؟؟

ألم أقل لك إن أعماقها ليست سوى دخان ؟؟

ألم أخبرك إنها لا تهب الدفء ؟؟

استفيدي من تجربتك معها ولكن تأكدي أني

أنا صديقتك الوحيدة ...

تدحرجت دمعة على خدي ...

وفهمت أكثر من كل مرة كم هي قاسية تلك الصديقة .

تمنيت أن أقتلها ... وددت لو أهرب ...

لكنني شعرت بتعب ... بإعياء ...

فأغمضت عيني المبللتين ...

ونمت مستسلمة على ذراع صديقتي الوحيدة القاسية .

* * *

Akhawia.net

- ٢ -

أنا قوية ...

لكن البرد ينخر في جسدي ويحاول تدمير أعصابي ...

أين أجد الدفء ؟

صديقي الأسمر يمحو ضياعي ، والصديقة الجديدة عادت تزورني كل يوم ، وتزين طريقي باللوحات الغنية ...

ثم تتبخّر !

وأبقى أنا مع ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد ، صديقتي الوحيدة ،

التي غدت تقسو ، وأمسيت لا أطيق صداقتها .

أريد دفئاً .

أين أجد الدفء ؟ أين ...

واقتربت من أسمري وتوسلت :

- أعطني دفئاً ... أنا في حاجة إلى دفء ...

استغرب

- أنا أعطي الحياة معنى ... أنا أزرع الأنغام في طريقك ...

هذا هو الدفء ...

لم أفهم .

بل قلت ببراءة وطفولة :

- أنا ما زلت إنسانة ...

أنا في حاجة إلى يد رحيمة تمسح جبيني ...

أنا في حاجة إلى كتف حنون أخبئ فيها رأسي...

أنا في حاجة إلى نفس طيبة عطوف أصب فيها عذابي ...

Akhawia.net

صديقي ... أعطني دفئاً ...

ضحك :

- أنت ما زلت صغيرة ...

سيعلمك السير على هذه الطريق أشياء كثيرة...

ولكن تأكدي من أنني أنا الوحيد الذي يستطيع أن يعطيك بقدر

ما تعطينه ...

أنا الوحيد الذي يستطيع أن يشعرك بأنك لا تضيعين وقتك ...

مرة أخرى لم أفهم !

وكيف أفهم وأفكاري جميعها أضحت تائهة تبحث عن وسيلة تساعدها على الهروب من البرد ...!

ودخلت غرفتي ، ووقفت أمام المرآة ، ورحت أتأمل نفسي .

فاقتربت ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد وحدجتني ثم قالت بصوت مطفأ :

- شكلك لا بأس به . أنت شابة وجميلة ...

زمجرت غاضبة :

- أنا شابة ... نعم أنا شابة ... ولكـــن

أليس من الحرام أن أكبر دون أن أتذوق معنى الدفء ؟

أليس من الحرام أن أســـير حتى النهايـــة على الجليـــد ؟

أليس من الحرام أن أدفن شبابي في الثلوج ؟

ورحت أردد سؤالي بصوت عالٍ وأهزّ المرآة علّها تجيبني .

وإذا باب الغرفة يفتح وتدخل سيدة سمراء ممتلئـــة الجسم ، متورمة الشفتين ، وتنتصب أمامي .

تفحَّصتها عيناي .

ثوبها الأحمر الناريّ ينعكس في نظراتها .

Akhawia.net

وشعرها المتهدل ينسكب متوهجاً على كتفيها .

تكلمت ،

فانساب صوتها الأجش المتكسر في جسدي وارتعشت .

– أتريدين دفئاً ؟ تعالي معي ...

تغلغلت نظراتي في عينيها ، فرأيت حرائق تتراقص في المحجرين.

سألتها :

– من أنت ؟ ولماذا أتيت إليّ ؟ أنا لا أعرفك ...

ضحكت :

– الشباب يعرفني دائماً... وأنت شابة... تعالي.

ترددت .

هل تستطيع هذه السيدة أن تقتل صديقتي الوحيدة القاسية ؟

هل تستطيع فعلاً أن تهبني الدفء ؟

هل أرافقها ؟

واقتربت ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد

وهمست في أذني الجواب :

– هذه السيدة تهب دفئاً مادياً مؤقتاً !!

هذه السيدة لن تستطيع أن تحلّ محلي ...

أنا صديقتك الوحيدة ...

ثـــــرت !!

لكن أسمري أطفأ ثورتي :

– اذهبي مع الصديقة الجديدة ،

وعودي إليّ بلون جديد ...

فالألوان تغذيني دائماً ...

خرجت مع ذات الثوب الأحمر إلى الردهة .

ولكن فجأة ، تسمرت قدماي إلى الأرض ... وصعقت !

كان الرجل السمين ذو العينين الفارغتين جالساً في الركن ، ينظر إليّ ويقهقه.

وكانت قهقهته تتصاعد في الفضاء ... لتتساقط عليّ برداً وأوجاعاً .

ماذا يفعل هذا المفترس هنا ؟

Akhawia.net

كيف لم يقتله صديقي الأسمر ؟

نسيت وجوده حين كنت أتزحلق على الأضواء ...

لكنه كان دائماً هنا ...

الآن فهمت أنه كان دائماً هنا .

دائماً هنا !

وارتعدت

وتأبطت ذراع الصديقة الحمراء ، وهربت معها إلى الشارع .

سرنا في درب معوجة ، ملتوية .

كانت تغني ، وكان صوتها المتكسر ينساب في عروقي ، فيلهب الدماء ،

ويتحرق جسدي .

وقادتني إلى مغارة .

وحين أصبحنا في الجوف ، ابتعدت عني ،

ورأيت طيفها الأحمر يقوم برقصة ناعسة ،

فيختلط بالأنوار الخافتة المنبعثة من فجوات في الجدران ...

ويصبح الجو غيمة حمراء تتراقص فوقي ...

تسكر نظراتي

ثم تنهـــمر عليّ أمطاراً نارية .

وتلفت حولي .

أجسادُ ممزقة تئن على الأرض ..

كؤوس تتحطم ... تتطاير شظاياها في الفضاء ...

فترتطم بأعصابي الزائغة ، وتحدث أنغاماً متوترة جنونية ...

زوبعة شوق تنبعث من الأرض وتجرف محتويات المغارة ...

فتتلاشى الرؤى ، ويســبح الجو في ضبــاب متــوهج ...

الموســيقى المتوتــرة تعلــو... تعلــو ... وتصخب ...

الموســيقى تســبل أهدابي ...

الدفء يحملني ... يدوخني ... يرهقني ...

ويرميني على الأرض ...كتــلة أنيــن !

Akhawia.net

وحين فتحت عينيّ ، وبحثت عن المرأة الحمراء ...

لم أجـــدهـــا !

هي أيضاً اختفت تاركة وراءها جواً من الاشـــمئزاز ...

احـــترت !

لكن ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد ..

اقتربت مني وقالت بلهجة قاسية :

– ألم أقل لك إن هذه الحمراء لا تهب الدفء الحقيقي ؟

صـــرخت :

– أنا بحاجة إلى يد رفيقة تداعب جبهتي .

ردّت :

– لن تجدي هذه اليد...أنا صديقتك الوحيدة...

فركـــضت حـــزينة

أختبئ في أحضان صديقـــي الأســـــمر .

* * *

حين دخلت بيتي ،

استقبلني الرجل السمين مقهقهاً كالعادة :

– هل ظننت هذه السيدة ذات العينين الناريتين تستطيع إذابة الجليد في عينيّ ؟

كم أنت مخطئة !

شعرت بشيء في داخلي يتمزّق .

هذه السيدة متآمرة عليّ مع " **الفراغ** "

هي طلبت إليه أن يبقى في بيتي ...

ونظرت إلى أسمري فبدا لي أنانياً قاسياً ...

فتواريت في غرفتي ،

وطفح الحزن في قلبي ... ليفيض من المقلتين ...

آهاتٍ لامـــــعةً ...

لـــمَ ؟

لم يظلّ هذا الرجل القبيح الفارغ في بيتي ؟

لَمَ أظل غارقة في الصقـــيع ؟

Akhawia.net

تألمت وصارعت وتعذبت وتسلقت الأضواء ...

وما زلت غارقة في الصقيع !

أيـــن الـــدفء ؟

هل كتب عليّ أن أعيش طيلة حياتي مع هذه الصديقة القاسية؟

متى أجد اليد الرحيمة التي تمســـح جبينـــي ؟

هل أظـــل عمـــري وحيـــدة ؟

إلى متى أدفع من أعصـــابي ثمن حيـــاتي ؟

وفجـــــــأة ...

فتـــح البـــاب ...

وبين أمطار الدموع ... أشرق الوجه الصغير المبتسم ،

- ماذا بك يا ناعمة ؟ تذرفين الدمع وأنت قوية...!؟

قلت بصوت ممزق :

- أنا قوية ... أنا قوية ! قـــوة ... قـــوة ...!

نعم ... لقد وهبني صديقي الأسمـــر قـــوة

لكنني أكاد أموت من البرد !

أريد دفئـــاً يا صغيري ... أريد حباً وعطفاً وحناناً ...

قضيت حياتي مشردة وخائفة ...

أصبحت قوية لكنني

مازلت مشردة

وفي التشرد برد وصقيع ...

نعم أنا قوية ...

لكن قوتي ستار يا صغيري ...

ستار يغلف قلباً أضنته الوحدة وهشمه الصقيع!

ضحك الصغير :

- المبدعون في هذه الدنيا يا ناعمة يظلون عمرهم وحيدين مشردين !

Akhawia.net

لكنني سأدلك على الدفء !

تعالي ... انظري ... أرأيت هذا الشعاع ؟

أرأيت هذه الدرب الجديدة ؟

هيـــــا اندفعـــي فيهـــا ...

سرت الدماء الحارة في جسدي .

- صغيري ... ما هي هذه الشمس الزرقاء

التي تسطع في سمائي ؟

ما معنى هذه الورود العاطرة التي تهمي عند اقدامي...

ما هو هذا التيار الدافئ الذي يسري في جسدي ؟

وصل جواب الصغير إلى سمعي نغمات مخمورة أسكرتني :

- إنه " **الحب** " يا ناعمة ... إنها درب الحب...

فانـــدفعـــــــــي فيـــــــها ...

* * *

- ٣ -

وقفت في أول الدرب مبهورة ...

ونظرت إلى الشاب الأشقر الذي كان يناديني في نهايتهـــا...

هل أركض إليـــه ؟

ونما تساؤلي ...

والتفت إلى ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد

أستدرّ من صمتها الجواب ،

فرأيتها تبتعد .

سرني فراقها وخرجت إلى الردهة .

فذهلت وأنا أرى الرجل السمين يقفز قفزات مخيفة ثم ينهار...

Akhawia.net

ويقع على الأرض جثة هامدة !

وأخـــــــيراً !

أخيراً لن أسمع القهقهة الجليدية ...

ورقص الفرح في عينيّ .

لكن صديقي الأسمر دنا مني وقال بلهجة حزينة :

– الحب وهـــــم !

أجبتـــه نشوى :

– الحب هو معنى الحيـــاة !

فـــردّد :

– هذا لا يمنع من أنه وهـــم !

صرخت منـــزعجة :

– لـــمَ ؟ لم لا تريدني أن أكون سعيدة ؟

– الســـعادة نيـــزك يشـــع بريقه ويختفـــي في الظلام...

السعادة هي توقف مؤقت للرتابة الدائمة ...

أما السعادة التي أمنحها أنا فهي ذات عمق ومعنى ...

وهي دائمة ...

– أنا لا أريد هذه السعادة ...

هذه السعادة التي ترضي العقل ولا تمت إلى العاطفة بصلة...

أريد سعادة تغرق قلبي ...

كان في ضحكته الساخرة تمـــزق وبكاء :

– وســـتتخلين عني ... لأنك ســـتعجزين عن تغذيتي...

فغذائي الأكبر في الحرمان ...

هززت رأسي لا مبالية ، وتركت أسمري ،

وركضت إلى الحبيب ببراءة وطفولة ...

ركضت إليه لأرمي لديه عبء سنواتي الماضية ...

ركضت إليه كطفلة يتيمة مشردة

لم تصدق أنها وجدت ملجأ لها في عينين صافيتين ...

ركضت إليه بلهفة الذي قضى حياته ظمآناً ،

ثم وجـد المـاء السـلسـبيل ...

ركـضت إليـه ...

لأطفئ في عينيـه قلقـي ...

ولأخفي في راحتيه ضياعـي ...

ولأجمع تشردي في شفتيه ...

ركـضت إليـه سكرى بأمـل السـعادة ...

ومررت بالبيت الكبير ... فراعني أن أسمع صراخاً وعويلاً ...

ثم رأيت عيوناً حمراً ثائرة تبرز من الجدران .

ويطبق الباب بشدة في وجهي ...

وتظل العيون الناقدة تلاحقني بسهامها المحرقة ...

ويردد الصدى ..

– عدتِ غريبة... غريبـة... عدت غريبـة...

ما همني إذا أطبق الناس باب البيت الكبير في وجهي ؟؟

Akhawia.net

سيكون بيتي الكبير بين ذراعي حبيبي .

وسلكت الدروب العتيقة وفي نهاية كل درب كان الأصدقاء

ينتصبون وينظرون إليّ باستغراب وسخرية ...

يستنكرون ركضي ... ثم يختفون .

ما همني تصرف الأصدقاء

سيتلاشى جميع الأصدقاء في كيان حبيبي ...

ومررت بالقصر الكبير ...

هناك حيث كان يقيم الإنسان الكبير الكبير ...

هناك لم أجد أحداً !

ولبت في الهدوء باحثة عن رأي

ولكن الصقيع زحف نحوي ... وغلفـني .

أريد دفئاً أريد عطفاً أريد حباً ...

لـمَ يغضب علي الجميع .

Akhawia.net

وفي هذه اللحظة وصل إلى سمعي صوت ضعيف أبح :

- لا تسلكي هذه الدرب يا فتاتي ...

الحب وهم ... الحب يميت الشخصية ...

ستخسرين كثيراً ... اسمعي مني ...

ابقي مع صديقك الأسمر ... فهو قادر أن يوصلك إلى كل الناس

لا تحددي آفاق حياتك في مخلوق بشري ...

لا يا فتاتي .. من الضعف أن يكون طموحك الحب ...

هذا الصوت الأبح الحبيب يضايقني الآن .

حتى هذا الصوت سأضطر إلى تركه ... إلى نسيانه ...

سأقطع خيوطي مع العالم الخارجي

وسأعمر عالماً كاملاً في عيني حبيبي الأشقر ...

* * *

وارتميت بين ذراعي أشقري وغردت دموع الفرح على وجنتيّ.

لأول مرة أشعر بأنني سأطرز الطريق بضحكي .

لأول مرة أشعر بأنني طفلة بريئة

تود رمي مسؤوليتها بين يدي إنسان حبيب .

لأول مرة يخيل إليّ أن الطريق لم تبتدئ إلا من هنا

وأن الصعوبات جميعها لم تكن إلا خرافات .

رفعت وجهي إليه فقال :

- من هو هذا الأسمر الذي ينظر إليك من بعيد ؟

- إنه صديقي الذي وهبني قوة حين كنت ضعيفة

وأهدى إليّ أهدافاً حين كنت ضائعة

وأمسك بيدي حين كانت تترنح سكرى بالألم.

- يجب أن تتخلي عنه !

ذهلت :

- لماذا ؟؟

- أنا لا أقبل أن يشاركني حبك رجل آخر !

Akhawia.net

ثم تأملني ملياً ونطق بلهجة جارحة :

- ماضيك لا يعجبني !

دارت الدنيا في عيني

ماضي ؟؟ ماضي الحزين المجرح ؟؟

ماضي المغمس بالدموع والعبرات ؟؟

حشرجت :

- عشت وحيدة غريبة !!

لم يفهم !!

لم يفهم كم هي قاسية الوحدة ...

وكم هي ثقيلة على الأكتاف المرهفة ...

حتى هو ... لم يفهم !

بل قال بلهجة سخيفة سطحية :

- إنني أنظر إلى الطريق التي قطعتها قبل أن تصلي إليّ ...

لقد سلكت دروباً عديدة... وتعرفت إلى أجواء مختلفة...

أنا لا أريد حبيبة قطعت الطريق بمفردها ...

طفحت دموعي ...

هذا الحبيب ...!

كيف لم يفهم أنني كنت مستعدة لأن أدفع حياتي

ثمناً ليد رحيمة تمسك بيدي ؟

كيف ...

كيف لم يفهم أنني لم أختر التشرد ؟

شعرت بأنني سأركع لديه وأرجوه ألا يجرحني ...

تمنيت لو أشرح له

ولو أقنعه بأنني أولى الناس بحبه ...

فأنـــا ...

أنـــا قلب طرزته الأيام بدموعها ...

أنـــا روح مزقتها الحياة بأظافرها ...

أنـــا نفس بشرية صبغها التاريخ بجروحاته ...

لكن يداً حازمة قوية شدت على ذراعي وهتفت بوجهي :

Akhawia.net

- ماذا دهاك ؟ هل جننت ؟

كيف تذلين نفسك ؟

أقسى العذاب يهون أمام الذل ...

- لكنني سأختنق من الألم ...

- إياكِ أن تذرفي دمعة ...

اسحقي الألم في أعماقك وارفعي رأسك !

حشرجت

- ولكن ... من أنتِ ؟

- أنا توأمتك ... ولدت معك ...

وسأبقى معك حتى النهاية ...

أنا التي لن تسمح لك ...

بأن ترضي ما حييت بالذل ! بل لن أسمح لك حتى بالشكوى !

أنا " **الكبرياء** " ...

توأمتك يا صغيرتي !

* * *

- ٤ -

رفعت رأسي ... ورميت إلى الحبيب نظر ملؤها الأسف ...

الأسف على نفسي ...

وعدت إلى الطريق

شامخة الرأس ... ميتة النفس ...

وغلفني الضياع

ولابت نظراتي التائهة تبحث عن ملجأ ...

وفجـــأة ...

جمدت خطواتي ...

واصطكت أوصالي للمنظر الأليم الذي رأيت

Akhawia.net

تخلى عني الحبيب ... لأنني ضعيفة !

ضحك أسمري :

- أنت القوية ... وهو الضعيف ...

هو رجل كالرجال ... رجل عاديّ ...

استمد من حبك له قوة... فاعتقد أنها قوته...

المهم ألا تصدقي أنت أنها قوته ...

تمتمت :

- لكنني أحبه !

- أنت لا تحبينه ...! بل تحبين الثوب الذي ألبستِه أنت إياه ...

تحبين الألوان التي سكبتها أنا عليه ...

تحبّين هذيان خيالك فيه ...

لقد ذهب هو ... أما خيالك فباقٍ ...

وأنا ...باقٍ وسألّون لك الدنيا ...

وسكت قليلاً ...

ثم تابع :

- ارفعي رأسك ... ماذا جرى ؟

ماذا تغير ؟ ما زلت أعبد يديك

والجواد ما زال ينتظرك ليحملك نحو الذرى المتكبرة ...

التفت إلى صديقي الأسمر ...

التفت إلى الفن الذي أحب ... وترددت :

- الجراح تنهش نفسي !

- سأجعل من جراحاتك بحيرات طيب

يسكر منها السائرون ...

- الدموع ترهقني !

- سأجعل من دموعك لآلئ نادرة يتسابق إلى لمها التابعون ...

هيا بنا ... سأحملك إلى الشموس ...

أما الدفء ... فيجب أن تعطيه أنت للآخرين ...

- لكنني وحدي !

Akhawia.net

فاقتربت ذات الثوب الأصفر الموشى بالسواد وقالت بلطف :

– أنا واثقة من أنكِ ستحبينني مع الأيام ...

فأنا موهوبة وغنية وسأهبك الكثير ...

وقبل أن أحتج أحسست بيد غريبة تمسك بذراعي :

التفت ...

وإذا سيدة جميلة ثاقبة النظرات ... صحيحة البنيان ...

تبتسم في وجهي :

– من أنت ؟

– أنا التي سأسير معك من الآن فصاعداً ...

أنا التي سأفهمك أن السير بدون صراع لا قيمة له ...

وأن الحياة عمل وإنتاج وعطاء ...

أنا التي سأدفعك دائماً إلى الأمام

مهما اعترضت طريقك خيبات وأحزان ...

أنا الحزم والقوة والتصميم أنا " **الإرادة** "

يا صغيرة !

والتفتّ حائرة تائهة فرأيت صديقي الأسمر يفتح لي ذراعيه

اقتربت منه ... وارتميت على صدره

وفجأة رأيته يتلاشى في كياني ...

ولأول مرة خاطبتني نفسي مباشرة :

– كيف لم تفهمي ... أن صديقك الأسمر هو وجودك ...

كيف لم تشعري أن الفن هو أنت ؟

وقبل أن أقول شيئاً ...

وصل إلى سمعي صوت قديم ضعيف :

– سيري إلى الأمام يا فتاتي ...

طيري إلى الذرى والمسي الشمس ...

اهملي العالم الخارجي... فعالم نفسك أغنى وأرحب ...

Akhawia.net

طيري يا ابنتي ... لأشعر أنني أطير معك...

هذا الصوت الأبح الحبيب ...
هذا الصوت الذي تعيش بحته في عروقي ...
هذا الصوت الآتي من عالم الأمومة ...
آه كم أحبه ...
أحبه وسأهبه الدفء أنـــــا !

أورقت ابتسامة ثقة على ثغري ...
والتفت إلى الوراء !
جراح ودموع تفرش الطريق ...
ذكريات بائسة تنبع من كل مكان ...
وسالت دمعة هادئة على خدي ...
الطريق شاقة ... لكنني سأمشيها !
سأحول ذكرياتي السود إلى لوحات زاهية ...
سأغرد آلامي وأنثرها أضواء للآخرين ...

وسأنادي الطفل ...
وأعرفه إلى السائرين ...

لا !
لن تحطم الخيبات عزمي ...
لن ترهق الجراح طموحي ...
بالرغم من الحواجز ...
سأطير نحو الذرى ...
وستلمس أصابعي الشمس ...
فتصبح أناملي ينابيع دفء ... وجداول أمل ...
ينهل منها العابـــــــــرون ...

* * *

١٩٦٢

Akhawia.net

الغـــــلاف

لوحـــــة كبيـــــرة بعنـــــوان

«كوليـــت والأيـــام»

قدمها إلـــيّ سنة ١٩٨٠

الفنـــــان الكبيـــر

صديـــق الطفولـــة

«جوليـــان قطيني»

«Kattinis»

مع شهادة توثيقية مسجلة

ومـــع تعليـــق علـــى اللوحـــة

Akhawia.net

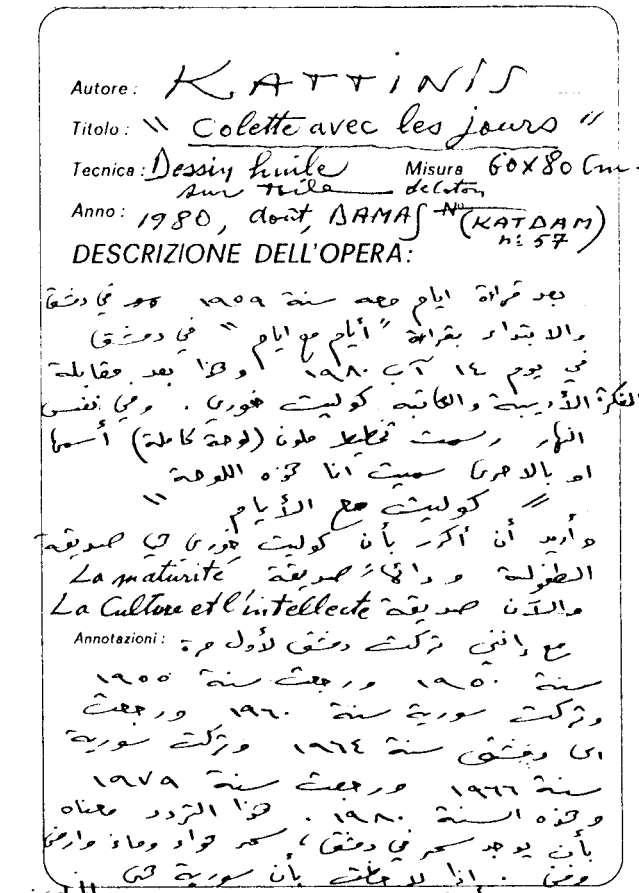

Autore: KATTINIS

Titolo: " Colette avec les jours "

Tecnica: Dessin huile sur toile de coton Misura 60x80 Cm.

Anno: 1980, Août, DAMAS N° (KATDAM n: 57)

DESCRIZIONE DELL'OPERA:

بعد قراءة ايام معه سنة ١٩٥٩ هو في دمشق
والابتداء بقراءة "أيام مع ايام" في دمشق
في يوم ١٤ آب ١٩٨٠ وهذا بعد مقابلة
المفكرة الأديبة والكاتبة كوليت خوري . وفي نفس
النهار رسمت تخطيط ملون (لوحة كاملة) أسمها
او بالاحرى سميت انا هذه اللوحة
" كوليت مع الأيام "
وأريد أن أكرر بأن كوليت خوري هي صديقة
الطفولة وأيضاً صديقة La maturité
والآن صديقة La Culture et l'intellecte

Annotazioni: مع إنني تركت دمشق لأول مرة
سنة ١٩٥٠ ورجعت سنة ١٩٥٥
وتركت سورية سنة ١٩٦٠ ورجعت
الى دمشق سنة ١٩٦٤ وتركت سورية
سنة ١٩٦٦ ورجعت سنة ١٩٧٩
وهذه السنة ١٩٨٠ . هذا التردد معناه
بأن يوجد سحر في دمشق ، سحر هواء وماء وارض
وفن . إذاً لا حظت بأن سورية هي
جهة لي ولغيري كما اليونان وايطاليا .
المحامي: جوليان قطيني
روما في ٢٩ آب ١٩٨٠

التعليق على اللوحة بخط الرسام

بعد قراءة «أيام معه» سنة ١٩٥٩ في دمشق والابتداء بقراءة «أيام مع الأيام» في دمشق في يوم ١٤ آب ١٩٨٠ - وهذا بعد مقابلة المفكرة الأديبة كوليت الخوري - في اليوم ذاته رسمت تخطيطاً ملوناً (لوحة كاملة) اسمها أو بالأحرى أنا سميتها:

«كوليت مع الأيام»

وأريد أن أكرر بأن كوليت الخــوري هي صديقة الطفولة وأيضاً صديقة سن النضج.. كما أنها الآن الصديقة في عالم الثقافة والفكـر ...

مقطع من رسالة الفنان جوليان قطيني